



فن السيرة في الجزائر العثمانية :
أنواعه وأعلامه وخصائصه الفنية

The Art of Biography in Ottoman Algeria: Its Types, Notables and Artistic Characteristics

سعيد بلعربي لخضر¹

¹ جامعة ابن خلدون- تيارت (الجزائر)، l_saidbelarbi@univ-tiaret.dz

ملخص

السيرة فن من فنون النثر الأدبي، يعرض فيه الكاتب حياة أحد الأشخاص المشهورين في مجال معين من مجالات الحياة. وقد اهتم أدباء الجزائر في العهد العثماني بتسجيل سير أعلام الأدب واللغة والعلم والدين والسياسة وغيرها من الميادين. ومن أبرز كتاب السير في هذه الفترة: أبو راس الناصري، ومحمد ابن مريم، وأحمد المقرئ، وعبد الكريم الفكون، وعبد الرزاق ابن حمادوش. وتتميزت هذه السير بتنوعها بين سيرة ذاتية وسيرة غريبة، واختلافها في الحجم ما بين قصيرة ومتوسطة وطويلة، وتعدد أساليبها ما بين الأسلوب الفني الراقى والأسلوب العلمي العادي.

كلمات مفتاحية: فنون النثر - السيرة - العهد العثماني - أنواع السيرة -

خصائص السيرة

Summary:

Biography is an art form within literary prose, where the writer presents the life of a notable individual in a specific field. During the Ottoman era, Algerian writers focused on documenting the biographies of prominent figures in literature, language, science, religion, politics, and other domains. Some of the most notable biographers from this period include Abu Ras al-Nasiri, Muhammad ibn Maryam, Ahmad al-Maqri, Abdul Karim al-Fakkoun, and Abdul Razak ibn Hamadoush. These biographies are characterized by their diversity, ranging from autobiographical to biographical accounts, and vary in length from short to medium and long.

Their styles also differ, encompassing both high artistic prose and standard scientific writing.

Keywords: Discourse, Pragmatics, Implicature, Sarcasm, Implicit Speech, Presuppositions

1. مقدمة:

إن المتصفح للتراث المكتوب في الجزائر في الفترة العثمانية، سيتفاجأ بالعدد الكبير من المؤلفات التي تركها المؤلفون – رغم أن كثيرا من الكتب ما زال حبيس رفوف المكتبات الخاصة والعامة في الجزائر وفي عواصم كثيرة من العالم – والباحث في التراث الجزائري سيعثر على مصنفات في شتى ميادين الأدب والعلم، فقد ألف الكتاب الجزائريون في فنون الرسائل والخطب والمقامات والحكايات وفي الإجازات والتقاريط كما ألفوا في الرحلات، وفي السير، مما يدل على انتشار الحركة الثقافية والأدبية خاصة في الجزائر في هذه الفترة، على يد الأدباء والعلماء الذين رفعوا لواءها في شتى الحواضر: شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ؛ وتضم كتب الأدب والرحلات وكتب العلوم والتاريخ وغيرها سير المشاهير في الآداب وعلوم الدين والأولياء والساسة والحكام ، في الجزائر وخارجها، فقد كان الجزائريون حريصين على تسجيل كل ما تراه أعينهم والترجمة لجميع من يلفت انتباههم من عظماء عصرهم.

وتسعى هذه الدراسة إلى الإحاطة بالموضوع، من خلال طرح مجموعة الأسئلة الآتية: ما هوفن السيرة ؟ وما هي أنواعه ؟ ومن هم أبرز أعلامه في الجزائر العثمانية ؟ وما هي أهم خصائصه الفنية ؟

1. مفهوم السيرة :

1.1. السيرة لغة :

السيرة فن أدبي، من الفنون النثرية السردية، وقد ظهرت عند العرب منذ القدم، واعتبرت مصدرا مهما من مصادر المعرفة لارتباطها بالإنسان في علاقته مع الحياة والمجتمع، فقد دأب العرب على تسجيل سير أعلامهم، من ملوك وشيوخ قبائل وأبطال وغيرهم، وكان يأتي غالبا شعرا، ضمن قصائد المدح والفخر ؛ ثم ازدهر هذا الفن عندهم بظهور الإسلام، وبرز منه نوع خاص اتصل بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم، يصف دعوته وغزواته ورحلاته، سمي السيرة النبوية ؛ ثم ارتقى في العهود

التالية مع وجود كتاب بارزين سجلوا سير الخلفاء والقادة الفاتحين والعلماء ؛ ولم يختلف الأمر في الجزائر، في مختلف عصورها، وخاصة في العصر العثماني. والسيرة في اللغة من السَّير، وهو مصدر للفعل سار الذي مضارعه يسير، ومعناه: ذهب يذهب وقد انتقلت الكلمة من المصدرية إلى الاسمية، واتخذت مجموعة من المعاني، فقد جات في لسان العرب في باب (س ي ر): "سير: السير: الذهاب، سار يسير سيرا ومسيرا وتسيارا ومسيرة وسيرورة... والاسم من ذلك السيرة.. والسيرة: الطريقة، والسيرة: الهيئة.." ¹

2.1. السيرة اصطلاحاً:

أما في الاصطلاح فالسيرة فن من الفنون السردية النثرية تتعالق مع هذه الفنون كالقصة والرواية والحكاية ومع المسرحية في مجموعة من الخصائص والعناصر الفنية كالسرد والوصف والشخصيات والحيز المكاني والزمني والأحداث، مع انفراده بمميزات فردية تجعله يختلف عن بقية الفنون، وفن السيرة – كغيره من الفنون - وردت في تعريفه عدة أقوال، تجعل منه فناً أدبياً يقوم على الجمع بين الحقائق التاريخية والتخيل الأدبي في تعرضه لشخصية لها مكانتها في أحد مجالات الحياة، كالسياسة والاجتماع والآداب والعلوم، منها أنه: "بحث يعرض فيه الكاتب حياة أحد المشاهير، فيسرد في صفحاته مراحل حياة صاحب السيرة أو الترجمة، ويفصل المنجزات التي حققها وأدّت إلى ذيوع شهرته وأهّلته لأن يكون موضوع دراسة" ² ؛ ومنها أنه: "نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي والإمتاع القصصي ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصية ما" ³

فالسيرة نص أدبي يبرز مظاهر التميز والتفوق عند علم من الأعلام البارزة، وهولا يكتفي بوصف هذا العلم بذكر مراحل حياته الشخصية، من مولده ونسبه ونشأته وتعلمه وما إلى ذلك..، ولكنه يعمل على ربطه ببيئته، وبيان مدى تأثيره في محيطه، مع وصف الأحداث التي تزامنت مع وجوده.

وفن السيرة لذلك يعتبر فنا من فنون الأدب النثرية، يقوم على حكاية حياة علم أو مجموعة أعلام بما يشبه المذكرات واليوميات، ولكن بواسطة أساليب القصة. أما في ما يخص استخدام كلمتي (السيرة والترجمة)، فإننا نجد أن كلمة (سيرة) استعملت لتدل على التاريخ المسهب لحياة الأشخاص، أما كلمة ترجمة فقد استعملت لتدل على التاريخ الموجز لصاحبها، رغم اختلاف استعمال الكلمتين عند القدامى، إلا أن المحدثين لا يفرقون عند الاستعمال بين الكلمتين، فالواحدة تستعمل مرادفة للثانية.⁴

2.أنواع السيرة:

تعد السيرة جنسا من الأجناس الأدبية النثرية مثل الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والمقالة الفنية، وهي نوعان :

1.2.السيرة الغيرية (الموضوعية) :

وتعريفها: " أن يكتب الإنسان عن الأشخاص البارزين لجلاء شخصياتهم والكشف عن جوانب العظمة وجوانب الانحطاط في هذه الشخصيات " ⁵

2.2.السيرة الذاتية :

وهي – كما يرى لوجون – تلك: " الرواية النثرية التي يروي فيها شخص ما قصة حياته بعد مضي فترة من الزمن، مسلطا الضوء على حياته الشخصية، وخاصة على تاريخ تكوين شخصيته " ⁶

ويظهر الهدف من كتابة هذا النوع من السير أي السير الذاتية في أن الغاية الأولى التي تحققها السيرة الذاتية هي الغاية المزدوجة التي يؤديها كل عمل فني صحيح أعني تخفيف العبء على الكاتب بنقل التجربة إلى الآخرين، ودعوتهم إلى المشاركة فيها فهي متنفس طلق للفنان يقص فيها حياة جديرة بأن تستعاد وتقرأ وتوضح موقف الفرد من المجتمع كما تمنحه الفرصة لإبراز مقدرة فنية قصصية إلى حد كبير. فترجمة الحياة عملية فنية تجمع بين عمل المؤرخ من جهة ارتباطها بسيرة إنسان عاش في بيئة بعينها وزمن بعينه، وبين عمل المصور، الفنان الذي يتخصص في رسم الصور المنطقية للأشخاص، ومع ما هنالك من تشابه جزئي بين عمل كاتب

ترجمة الحياة والمؤرخ، فإن طريقة تناول كل منهما لحياة زعيم سياسي أو فكري، أو حياة قائد عسكري، أو مصلح اجتماعي تختلف فحين يترجم كاتب لحياة قائد عسكري مثلا، فإنه لا يهتم بوقائع التاريخ إلا من زاوية واحدة هي مدى ما كان لتلك الوقائع التاريخية من تأثير في حياته وتشكيل شخصيته وبلورتها على مر الأيام. فهي من خلال هذا نقل غير مباشر يعتمد الشواهد والوثائق والأحداث المؤرخة الموثقة، مما يجعل الاتجاه السائد فيها موضوعيا يبعد عن الذاتية التي نلمسها في سابقتها.

كان الأدباء الجزائريون حريصين على كتابة سيرهم، وسير غيرهم من أعلام اللغة والأدب والدين والسياسة، لتكون نماذج يقتدى بها، ولما تحمله من القيم المعرفية حين تتعرض لجوانب الحياة المحيطة بالمتروك له، فالسير بنوعها تعكس لنا الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للشعوب التي كانت موضوعا لهذه السير؛ ولم يكتف كتاب السيرة الجزائريين بالتعريف بالأعلام المعاصرين لهم بل ذهبوا إلى الذين سبقوهم في الزمن أو باعدوهم في المكان، ويأتي ذلك أحيانا في مؤلفات خاصة بهذا الفن، ويأتي في أحيان أخرى متناثرا في كتب الرحلات وغيرها.

3. أعلامها:

1.3. أبو راس الناصري :

ويعد كتابه (فتح الإله) واحدا من أبرز ما كتب في هذا الفن، وقد جمع فيه بين نوعي السيرة: الذاتية والغيرية؛ أما في النوع الأول فنجدته تعرض لمختلف مراحل حياته الشخصية: من مولده في منطقة واقعة بين جبل كرسوط وهونت وانتقاله مع عائلته إلى متيجة أين توفيت أمه؛ ثم انتقاله مرة أخرى إلى مجاجة أين تفرغ أبوه لتعليم القرآن للكبار والصغار، إلى زواجه هناك أكثر من مرة.

كما اهتم بوصف حياة البؤس والشقاء التي عاشها بعد وفاة أمه، وأنه بقي بعدها في بيت أبيه هو وأخوه السيد عبد القادر وأخوهما الأكبر أخذهما إلى المغرب، وقد تكفل بتحفيظ بعض الطلبة القرآن وكان يعمل وأحيانا يتسول لإطعامهم.

ثم ذكر في مقام آخر من سيرته زواجه وإقامته فترة من الزمن في البادية قبل أن يغادرها إلى مدينة معسكر. ولم ينس الشيخ أبوراس ذكر نسبه والتنويه بأبائه وأجداده ملحقاً بنسبه بعلي كرم الله وجهه: " فأما نسبي فأنا عبد ربي محمد أبوراس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن علي بن عبد العظيم بن معروف بن عبد الله بن عبد الجليل، وأن هذا النسب متصل إلى عمرو بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت الرسول × " ⁷

وقد تفصّل الكاتب في ذكر الجانب العلمي من حياته في جميع مراحل تعلمه مشيراً إلى الشيوخ الذين أخذ عنهم ؛ مبتدئاً بأخذه عند ولادته إلى أحد الأسيّاح في منطقته، والذي تنبأ له بالعلم والنبوغ والصلاح، وهو الشيخ علي بن موسى اللبوخي، وهو الذي تنبأ له بالنبوغ في العلم والعمل والصلاح والغنى والحفظ وفي التدريس والتحفيظ والخطابة والقضاء والتأليف.

كما وضح طريقة التدريس عنده، والتي جعلت الطلبة يرغبون في مجالسه: " وكنت أجلس للدرس فأبتدىء من (باب الاعتكاف)، ثم لا أقوم حتى أقف على (باب الزكاة) ولا يقف لي شيء، ولا أشك، مع كثرة (باب الحج) وطوله وصعوبته، ومع كثرة الطلبة وقوة اعتراضهم، حتى إني لا أصحب معي كتاباً، ولا يقرأ في مجلسي، إلا إذا قرىء خفية مني، وأورد درسي على التحقيق والتدقيق، وأوشحه بتمتات، ولطائف مهمات، وتنبيه وجيه، وتكميل وتذييل، وترتيب عجيب، حتى صارت حضرتي في العلم تذكر في الآفاق، وتنسيك دروس مصر والشام وتونس والعراق، وأذكر في أثنائه حكايات ونوادير لتنشيط القلوب الفواتر... " ⁸

ثم أورد طائفة من سير شيوخه وهي متفاوتة في الطول، منها ماجاء قصيراً مختصراً مثل سيرة الشيخ أحمد بن نافلة الذي وصفه بالورع والزهد والتبحر في العلوم، والشيخ إسماعيل، والتي لم يزد أن قال فيها صاحب كتاب (فتح الإله): " ومنهم شيخنا الحبر الجليل، السيد إسماعيل، لئن الجانب للأقصى والداني، لله دره، ما أعرفه بشرح السوداني " ⁹، ومن السير القصيرة في كتاب (فتح الإله) ما ذكره صاحبه عند الحديث عن الشيخ البيدري.

وهذه السير وغيرها - مما يشبهها في قصرها - لا تكاد تذكر من المترجم له إلا اسمه ومكانته العلمية وبعضها مما أخذه عنه كاتب السيرة، ويغلب عليها الإجمال والتلميح.

أما السير الطويلة أو متوسطة الطول، فهي كثيرة في كتاب أبي راس، وهي متميزة عن السير القصيرة بذكرها لتفاصيل أكثر متعلقة بنسب المترجم له وأطوار حياته التعليمية والمهنية. ويرجع هذا التفاوت في طول السير التي عرضها أبو راس الناصر في (فتح الإله) إلى نوعية العلاقة الموجودة بين الكاتب والمترجم له، ومدى توفر المعلومات عنه أو نقصها وإلى أهمية الشخص بين الناس ورتبته بين الأعلام في مجتمعه.

ومن هذا النوع من السير، سيرة الشيخ عبد القادر المشرفي التي بدأها بتقديمه وذلك بذكر اسمه وروافد علمه وأخلاقه ومكانته العلمية والاجتماعية، وأنه أخذ علم الكلام والفقه والنحو والأصول والبيان عن العلامة أبي عبد الله محمد المنور التلمساني.

واستعرض بعض كراماته: "فمن ذلك ما أخبرني به - رضي الله عنه - قال: بينما أنا أمشي عند الشيخ أحمد أمعاز، وإذا برجل لقيني، أحمر، غليظ، حاف، كأنه من رجال (قلعية)، فقلت له: من أنت؟ فقال: من الناس، قال: فقلت: أنت من عفاريت الجن أرسلك السيد العربي بن بركان المهاجي إلى الحاج محمد بن مشرف لتضربه؟ فإذا به رجع ثورا عظيما، وعدا عدو الفرس، وأنا أنظر إليه، وذنبه على رأسه، حتى توارى عني بشجرة الشيخ اعمر بن عطاء، كأنه قاصد (إيفكان)، لأن الشيخ العربي به، وكان في منافسة مع الحاج محمد المذكور،"¹⁰

ومن كتبه في هذا الفن، كتاب: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، وهو من المؤلفات التي لم تكن في الأصل كتب سيرة ولكنها اشتملت على سير بعض الأعلام متفرقة بين جنباتها؛ وقد تضمن سير العديد من الأعلام منهم الشيخ محمد الهواري

نسبة لهوارة وأكثرها بطرابلس ومسرارة التي بها ضريح الشيخ زروق، ومنهم قبائل بالقيروان.

وقد يذهب أبوراس إلى حد كتابة سير الأنبياء والرسل كما هو الحال في النص الآتي الذي يتناول فيه سيرة نبي الله إدريس عليه السلام: "... وأكثر النسّابون على أن إدريس ليس بجدة لنوح خلافا لابن إسحاق، وزعم الحكماء أن إدريس هوهرمس الحكيم المشهور، وقد يترجح صحة هذا النسب من التوراة لأنه وقعت العناية فيه بنسب موسى وإسرائيل ونسب ما بينهما وبين آدم، ويؤيده ما في صحيح البخاري في حديث الإسراء من قول نبي الله إدريس لنبيينا محمد لما مر به وسأل عنه جبريل فقال: هو محمد مرحبا بالنبي الصالح ولم يقل: والابن الصالح والأخ الصالح كقول نوح عليه السلام وإبراهيم...¹¹

2.3. محمد ابن مريم :

من أهم كتب السيرة الغيرية في الأدب الجزائري في العهد العثماني، كتاب (البستان) لابن مريم: ويتميز هذا الكتاب بأنه يختص بالتعرض لسير أهل تلمسان دون غيرهم من علماء وأعلام الجزائر أوسائرهم من علماء المسلمين، وقد استطاع المؤلف أن يترجم في كتابه لمائة واثنين وثمانين وليا وعالما ولدوا بتلمسان أو عاشوا فيها، وتراجم هذا الكتاب تتباين في طولها بحسب ما يتيسر للمؤلف من المعارف. وقد ذكر ابن مريم الهدف من تأليفه كتابه هذا حين قال في مقدمته: "... وأن ينفعكم به - خصوصا - وينفع به المسلمين - عموما - دنيا وأخرى، وهذا الذي ألهمتم إليه أيها الأخ من أفضل ما يبذل به العمر كله، فكيف إذا ما مضى منه الأكثر فيما لا يعني، لأن فيه أنسا للقلوب المتوحشة من الزمان وأهله، وتنشيطا للنفوس، وقد نص العلماء على أن ذكر العلماء وحكايات الصالحين واقتصاص أحوالهم أنفع للنفس بكثير من مجرد الوعظ والتذكير بالقول...¹².

ومن الذين ترجم لهم ابن مريم الشيخ المناوي والشيخ خليل، وهي من السير الطويلة في كتاب (البستان) والتي تعرضت لتفاصيل كثيرة في حياة المترجم له العلمية والعملية: "... وكان يرتزق على الجندية لأن سلفه منهم، وحدثني الإمام العلامة المحقق

الفاضل قاضي القضاة بمصر والاسكندرية ناصر الدين التنسي أنه اجتمع به حين أخذت الاسكندرية، وكان نزل من القاهرة مع الجيش لاستخلاصها من أيدي العدو... وحكي عنه أنه جاء يوما لمنزل بعض شيوخه فوجد كنيف المنزل مفتوحا ولم يجد الشيخ هناك، فسأل عنه ف قيل له أنه شق عليه أمر هذا الكنيف فذهب يطلب من يستأجر له على تنقيته، فقال الخليل: أنا أولى بتنقيته وشمري على ذراعيه ونزل ينقيه... " 13 ؛

واستعرض ابن مريم مكانته ونشاطاته العلمية ومجالسه وإقبال المتعلمين على حلقات دروسه وثناء شيوخه عليه.

وسير ابن مريم لم تكن جميعا طويلة فإن منها ما لا يتجاوز السطر أو السطرين بحسب ما يتوفر لدى كاتبها من المعلومات عنه، مثل سيرة أحمد بن محمد التي جاءت مقتضبة مختصرة: " قرأ على سيدي أحمد بن محمد بن زكري التلمساني، أخذ عنه الأصول والمنطق والمعاني والبيان والعربية، وكان ماهرا فيها، والحساب ... " 14

3.3. أحمد المقرئ :

كما يعتبر كتاب (نفح الطيب) من الكتب التي حفلت بسير الأعلام من الشرق والغرب، وقد عرف بكتابه والهدف من ذكر سير الأعلام: "... في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق الزاكية العرار والبشام، ومدح جماعة من أولئك الأعلام، ذوي العقول الراجحة...وما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها، وأرباب بيانها ذوي السؤدد والاحتشام، ومخاطباتهم للفقيه المؤلف حين حلها سنة ألف وسبع وثلثين للهجرة، وشاهد برق فضلها المبين وشام " 15

3.4. عبد الكريم الفكون :

يختلف كتاب (منشور الهداية) - من خلال عنوانه - في أهدافه وفي مضمونه عن غيره من كتب السيرة أما عن أهدافه، فقد صرح الكاتب نفسه في مقدمة الكتاب أنه لم يؤلف كتابه هذا لمجرد التعريف بالأعلام البارزين كما يفعل في العادة غيره من كتاب هذا الفن، بل أراد من وراء ذلك تنبيه الناس إلى الطوائف الضالة من أشباه

العلماء والأولياء المنتسبين إلى الدين زورا وباطلا، والتحذير من مكرهم ودجلهم، وفي ذلك يقول: " أما بعد، فلما رأيت الزمان بأهله تعثر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر وسحائب الجهل قد أضلّت، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيسا، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسا وصاحب أهل الطريقة¹⁶ قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة... ولم آل في التنفير من كلتا الطائفتين والتحذير منهم في كل زمان ومكان، وبين كل صالح من الإخوان..."¹⁷.

وقد قسّم الفكون كتابه إلى ثلاثة فصول وخاتمة. أما الفصل الأول، فقد جعله للذين لقيمهم من العلماء والصالحين للتعريف بهم وإظهار جميل خصالهم ورفيع أعمالهم اقتداء بهم؛ وجعل الفصل الثاني في كشف حقيقة المنتسبين للعلماء وفضح أحوالهم أمام للناس ليحذروهم ويتّقوا ضررهم؛ وفي الفصل الثالث عرّف بفئة الدجالين والصوفية المزيفين لتمييزهم عن الأولياء والصوفية الحقيقيين؛ وأما خاتمة الكتاب فقد أفردتها المؤلف لمن عرفهم من العلماء والأولياء والأتقياء.

5.3. عبد الرزاق ابن حمادوش :

وله رحلة بعنوان: (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والمال)، وهي ككثير من كتب الرحلة تضمنت سيرا لبعض الأعلام، منهم أستاذه الشيخ عبد السلام، فأبرز خصاله، وتقواه، وتبحره في العلوم والآداب: " السابع شيخنا العلامة، اللابس من ملابس التقوى والورع... الشريف أبو محمد سيدي عبد السلام بن مولانا الطيب القادري الزاهد المعروف بالخلق الحسن، والخلق المستحسن المتوفي بفاس ثالث عشر ربيع النبوي الأنور عام (1110) عشرة ومائة وألف. قرأت عليه الألفية وتلخيص المفتاح والخزرجية، وسمعت من فوائده وأشعاره وقصائده الحديثية والسيرة كثيرا، ولم استجزه رحمه الله، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لفعلت ولكن الله غالب على أمره... فمن شيوخه الشيخ سيدي عبد القادر الفاسي، وولده شيخنا أبو عبد الله سيدي محمد، وأبو علي اليوسي وتوفي سنة 1110. " ¹⁸

4. الخصائص الفنية للسيرة:

1.4. الخصائص المضمونية:

السيرة فن من الفنون النثرية لها خصائص تميزها عن الفنون النثرية الأخرى ولا بد من مراعاة هذه الخصائص عند كتابتها ؛ ويشترط عند كتابة السيرة بنوعها التقيد بالأمانة العلمية وتحري الصدق والدقة، وتجنب الاحتكام للعاطفة حتى لا تنحرف السيرة عن مقصدها الطبيعي، وعدم الانسياق للخيال الزائد؛ ولكن لا بأس بقليل من الخيال يضمن للسيرة أدبيتها، وليكن خيالا مقيدا بالحقيقة مختلفا عن الخيال الذي يميز الفنون السردية الأخرى كالرواية والقصة ؛ كما تشترك السيرة مع فنون السرد في مجموعة عناصر منها الزمان والمكان والشخصيات، إلا أنها في السيرة حقيقية، أما في غيرها فقد تكون من نسج الخيال، وقد نعثر على سير رمزية لا يصرح فيها الكاتب بالأشخاص، ويكثر هذا في السير الذاتية، حينما لا يريد الكاتب ذكر الأسماء الحقيقية لأصحابها.

ومما تتميز به السيرة أنها نص نثري يتكون من حيث معماره من ثلاثة أجزاء: مقدمة ووسط ونهاية، وبعض من هذه العناصر قد لا يتوفر إلا في السير الطويلة المكتملة ؛ وإن أول ما يمكن ملاحظته على فن السيرة - وخاصة السيرة الغيرية - هو ذلك التفاوت في الطول بين سيرة وأخرى، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى أهمية المكتوب عنه وإلى كثرة المعلومات عنه أوندقتها، وهذا هو الذي جعل الكتاب يسهبون أحيانا في الحديث عن بعض الأشخاص، بينما لا يكاد حديثهم عن آخرين يبلغ السطرين. لذلك قد تختلف البنية المعمارية لكل نص سيري عن غيره في عناصرها، ولكنها على العموم ذات ملامح واحدة، فكل نص له بداية ووسط ونهاية، كما أن هناك مجموعة من العناصر تشترك فيها السيرة مع بقية الأشكال النثرية السردية، منها الأحداث والشخصيات والحوار والمكان والزمان، وهي التي نحاول تجليتها في سيرة أبي راس الناصري (فتح الإله) :

1.1.4. الأحداث:

يمكن تقسيم الأحداث التي سجلها أبوراس في (فتح الإله) إلى ثلاثة مراحل :
المرحلة الأولى: وهي مرحلة الطفولة التي تمتد من تاريخ ولادته إلى بلوغه سن الصوم، وفيها سافر والده إلى منطقة المتيجة، حيث ماتت أمه، ومات أبوه بعد فترة فكفله أخوه، وحفظ القرآن الكريم وتعلم الفقه على يد بعض علماء معسكر.
المرحلة الثانية: وهي مرحلة الشباب وفيه سافر إلى مازونة وحفظ فيها (مختصر خليل) في الفقه، ثم رجع إلى معسكر ولزم الشيخ عبد القادر المشرفي، وعمل في القضاء في غريس، وفي هذه المرحلة تزوج.

المرحلة الثالثة: وتبدأ بانتقاله إلى معسكر للتدريس فيها ما يقارب الست والثلاثين سنة، وقد عدد تلاميذه أكثر من سبعمائة تلميذ، وفي هذه المرحلة كثرت رحلاته، كما كثرت تأليفه، وعاصر مجموعة من الأحداث، منها حملة الفرنسيين على مصر، ومنها فتح وهران، الذي تحدث عنه أبوراس في معرض حديثه عن الشيخ السنوسي بن السنوسي حين قال: " إنه قُتل مجاهدا في معركة عظيمة بين المسلمين ونصارى وهران ، فكان بينهما حرب لم تنسج الأزمان على منوالها، ولا أنت الأيام الحبالى بمثل أجنة أهوالها " ¹⁹

2.1.4. الشخصيات :

يعتبر السارد في السيرة هو الشخصية الرئيسة التي تتمحور الأحداث حولها، ويتغير الضمير المعبر عن هذه الشخصية بما يراه الكاتب مناسبا، وعادة ما يكون ضمير المتكلم أوضمير الغائب ؛ أما أبوراس في (فتح الإله)، فقد اختار ضمير المتكلم، كقوله مفتخرا بنفسه على علماء مصر إثر مناظرة علمية جرت بينه وبينهم: " فألقوا السلام، واعترفوا لي بالفضل والنبل.. وعلموا أن العلم بين سحري ونحري.. " ²⁰.
أما شخصيات أبي راس في (فتح الإله)، فهي أربعة أقسام أوفئات:
أ-الشخصيات المعاصرة للكاتب، مثل شيوخه وزملائه العلماء وتلاميذه طلبة العلم.

ب-الشخصيات التاريخية التي أوردتها في معارض حديثه، ومنهم معز الدولة ابن بويه، ومحمد بن تومرت..

ج-العلماء والفقهاء والمفسرون والقراء والنحاة، ومنهم الإمام مالك، والإمام الشافعي، والطبري، وقالون، وابن مالك.

د-شخصيات متخيلة كتلك التي رأى بعضها في المنام.

3.1.4. الحوار:

يوظف صاحب السيرة أحيانا الحوار باعتباره أداة لإنعاش الأحداث وإحياء الشخصيات، والكشف عن أفكارها ومشاعرها، وقد أورد أبوراس كثيرا من الحوارات التي جرت بينه وبين العلماء، أوبينه وبين طلبته، من ذلك قوله: " اجتمعت مع علماء بالجامع الأعظم، وتناظرنا وتذاكرنا في مسائل جمّة، قالوا لي: من يلقب بالحافظ، لا بد أن يختص بشيء دون غيره، وأنت ما تحفظ ؟ فقلت: أحفظ كذا وكذا متنا من سائر العلوم".²¹

4.1.4. المكان :

تنوع المكان – الذي يعد الوعاء الذي تقع فيه الأحداث، وتتحرك فيه الشخصيات – في كتاب أبي راس المذكور آنفا، بحسب تطور أطوار حياته، ويمكن تقسيم مكان سيرته إلى الأقسام الآتية :

أ-مكان مسقط رأسه في معسكر: والذي يقع بين (جبل كرسوط) و(هونت).

ب-مكان نشأته: وهومنطقة (متيجة) قرب العاصمة، ومنطقة (مجاغة) بسطيف.

ج-مكان طلبه العلم: مثل معسكر والقيطنة ومازونة، وأماكن خارج الوطن.

د-مكان رحلاته: وهي كثيرة، بعضها داخل الوطن مثل وهران والعاصمة وقسنطينة، وخارج الوطن، مثل تونس وفاس ومصر والشام.

5.1.4. الزمان :

اعتمد الكاتب في عرضه للزمن على الطريقة الأفقية الطبيعية، وفق تسلسل الأحداث، من مولده إلى تعلمه وتنقله في الداخل والخارج، ولكن في بعض الأحيان كان يعرض الزمن بطريقة الاسترجاع وذلك بالعودة إلى الماضي، كقوله من حديث جرى بينه وبين الفقيه محمد بن جعدون بالعاصمة: " فلقيت بها الفقيه المسمى الشيخ القاضي المفتي السيد محمد بن جعدون، فقال لي: من هو شيخك ؟ قلت: المشرفي، قال: كان في زمن ماض قدم عندنا هو وشيخه محمد المنور..."²²

2.4. الخصائص الأسلوبية:

تتباين نصوص السيرة- مثل غيرها من الفنون الأخرى - في أساليبها فترتقي تارة لكي تصبح لوحات فنية تأخذ بلب القارئ وتستعري اهتمامه ؛ وتنزل طورا لتكون مجرد وصف تسجيلي للأفراد والأماكن والأحداث، يخلو من كل مسحة جمالية، ويعود هذا التفاوت في الأسلوب إلى اختلاف الكتاب في درجة امتلاك ناصية اللغة ووسائل التعبير؛ فسير المقري على سبيل المثال أرقى من سير ابن حمادوش من ناحية الأسلوب، ذلك أن الأول أديب من أكبر أدباء عصره، أما الثاني فهو عالم أخذ من وسائل اللغة ما يؤدي غرضه في علمه.

ولكن للسيرة خصائص أسلوبية تشترك في جلها مع غيرهما من الفنون النثرية منها اعتماد السرد والوصف وكثرة النعوت، واستعمال الخيال وما إلى ذلك من عناصر جمالية واقتباس من القرآن والشعر وغيرهما؛ وتختلف درجة توظيف هذه العناصر الأسلوبية من نص إلى آخر؛ ومن أبرز الظواهر الأسلوبية التي تطبع فن السيرة، والذي يظهر أهمه في سيرة أبي راس الناصري: ثراء المعجم اللغوي، والاهتمام بالبديع، والاستطراد، والاستشهاد بالشعر.

1.2.4. ثراء المعجم اللغوي :

يعود تنوع المعجم اللغوي وثرائه عند أبي راس إلى اتساع ثقافته، بدليل كثرة مؤلفاته التي تجاوزت المائة والثلاثين كتابا في علوم اللغة والشرع والتاريخ، ومن أهم المعاجم التي ميزت لغته، ما يأتي :

أ- المعجم الصوفي :

ومن مفرداته عنده: القطب، والغوث، ورباني، وشيخ الطريقة، والولاية، والكرامات، والخوارق، والحضرة..

ب- المعجم الشرعي:

ومنها: الحافظ، والفتوى، وعلم الفرائض، ورسم القرآن، والإمالة..

ج- المعجم المذهبي :

وهو الذي يتصل بالمذاهب الفقهية، كالمالكية، والشافعية، والظاهرية.. وألفرق الكلامية: كالمعتزلة، والأشاعرة..

د- المعجم المحلي :

وهي مجموعة المفردات المستعملة في منطقة معسكر، ومنها: أسلك لهم ألواحهم، وبرنوس، وشاشية، وأفتي عليهم..

2.2.4. الاهتمام بالبديع :

بالرغم من أن أسلوب أبي راس يتميز بالسلاسة والترسل، إلا أنه لم يخل من صنوف البديع كالسجع والجناس والطباق والمقابلة والاقتباس، من ذلك ما نجده في حديثه عن شيخه محمد الصادق: " الحافظ الزاهد، الورع الناهد، التقي الناسك، الصوفي السالك، ذوالخبرة التامة بعلم الشريعة، فكل مسألة صعبت على غيره فهي له مطيعة " ²³.

3.2.4. الاستطراد :

الاستطراد من أظهر الخصائص الأسلوبية في كتابة أبي راس، ومرجع ذلك إلى غزارة علمه، ووفرة ثقافته، من ذلك ما نلمحه في وصف شيخه أبي عبد الله بن لبنة: " وهو في عبادة وبرنوس فقط، وهوزي كثير من الأولياء، ألا ترى إلى بشر الحافي لا نعل له أبدا، وابن أدهم سيد الأولياء في جبة فقط " ²⁴

والاستطراد ليس خصيصة مقصورة على أبي راس فحسب، وإنما كانت معروفة في وقته، وقبل ذلك عرف بها كتاب العرب القدامى ومنهم الجاحظ.

4.2.4. الاستشهاد بالشعر:

وانتشار الاستشهاد بالشعر في (فتح الإله) يدل على حفظ الكاتب وتذوقه لشعر العرب قديما وفي وقته، وتنقسم الأشعار التي استشدها أبو راس في كتابه ثلاثة أقسام:

أ- قسم يتعلق بأشعار كبار الشعراء العرب القدامى كزهير بن أبي سلمى، وأبي العلاء المعري، وأبي الطيب المتنبي.

ب- قسم يتعلق بأشعاره هو التي نظمها في موضوعات متعددة.

ج- قسم يتعلق بالأشعار التي نظمها معاصروه في مدحه ؛ ومما استشده به من شعر قدامى الشعراء العرب، بيت للمتنبي في كافور الإخشيدي: ²⁵
وأخلاق كافور إذا شئت مدحه وإن لم أشأ تملني عليّ وأكتب خاتمة :

مما سلف يتبين أن اهتمام الكتاب الجزائريين في العهد العثماني بفن السير كان كبيرا قد تعددت ما بين سير ذاتية يكتبها الكتاب أنفسهم يصفون فيها أحوالهم وأعمالهم، وسير غيرية هي تلك التي يكتبها الكتاب لغيرهم ممن عرفوا في علم أوفن وبرزوا فيه.

أما عن خصائصها، فقد تباينت السير بنوعها في طولها وفي مستوى أسلوبها، بحسب طبيعة توفر المادة المعرفية عن المترجم له، ومستوى مؤلفها ومدى تحكمهم في أدوات الكتابة وأساليب التعبير.

مراجع البحث وإحالاته:

1 ابن منظور: لسان العرب، مادة (س ي ر)، المجلد الرابع، نشر أدب الحوزة، إيران، 1405 هـ، ص 389 – 390

2 جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط2، 1984، ص 143.

3 أنيس المقدسي: الفنون الأدبية و أعلامها في النهضة العربية الحديثة، ط 6، بيروت – لبنان، دار العلم للملايين، جوان 2000، ص 547.

- 4 ينظر: يحي إبراهيم عبد الدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص 31؛ و ينظر: محمد عبد الغني حسن: التراجم و السير، دار المعارف بمصر – القاهرة، ط2، 1969، ص 28.
- 5 هاني العمدة: دراسات في كتب التراجم و السير، المؤسسة الصحفية الأردنية، ط1، 1981، ص 8-9.
- 6 فيليب لوجون: أدب السيرة الذاتية في فرنسا – المفاهيم و التصورات، تر: ضحى شيحة، مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد، العدد(4)، 1984، ص 25، و ينظر: ليون إيدل: فن السيرة الأدبية، تتر: صديقي عبد الله خطاب، القاهرة (د.ط)، 1973، ص 14-15.
- 7 أبو راس الناصري: فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته، تح: ممد بن عبد الكريم الجزائري، ش و ك، الجزائر، 1990، ص 25
- 8 م ن، ص 22
- 9 م ن، ص 46
- 10 م ن، ص 53 – 54
- 11 محمد أبو راس الناصري: عجائب الأسفار و لطائف الأخبار، ج 1، تق و تح: محمد غالم، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية، 2005، ص 54 – 55.
- 12 محمد ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 5 – 6.
- 13 م ن، ص 97 - 98.
- 14 م ن، ص 8.
- 15 أحمد أبو العباس المقرئ: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج 2، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1388هـ - 1968 م، ص 225 - 226.
- 16 يقصد بهم أهل التصوف المنحرف.
- 17 عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم و الولاية، ط1، تح: أبو القاسم سعد الله، بيروت – لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1408 هـ - 1986 م، ص 31 – 32.
- 18 عبد الرزاق ابن حمادوش: رحلة ابن حمادوش (لسان المقال في النبأ عن النسب و الحال، تح: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المكتبة الوطنية – م و ك، 1983، ص 47.
- 19 أبو راس الناصري: فتح الإله، ص 73.
- 20 م.ن، ص 117.
- 21 م.ن، ص 116.
- 22 م.ن.ص 91.

- 23 م.ن.ص 45.
- 24 م.ن.ص 20.
- 25 م.ن.ص 51.
- قائمة المصادر والمراجع :
- 1- ابن منظور : لسان العرب، مادة (س ي ر)، المجلد الرابع، نشر أدب الحوزة، إيران، 1405 هـ.
 - 2- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط2، 1984.
 - 3- أنيس المقدسي : الفنون الأدبية و أعلامها في النهضة العربية الحديثة، ط 6، بيروت - لبنان، دار العلم للملايين، جوان 2000.
 - 4- يحي إبراهيم عبد الدايم : الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
 - 5- محمد عبد الغني حسن : التراجم و السير، دار المعارف بمصر - القاهرة، ط2، 1969.
 - 6- هاني العمدة : دراسات في كتب التراجم و السير، المؤسسة الصحفية الأردنية، ط1، 1981.
 - 7- فيليب لوجون : أدب السيرة الذاتية في فرنسا - المفاهيم و التصورات، تر: ضحى شبيحة، مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد، العدد(4)، 1984.
 - 8- ليون إيدل : فن السيرة الأدبية، تتر: صديقي عبد الله خطاب، القاهرة (د.ط)، 1973.
 - 9- أبو راس الناصري : فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته، تح : ممد بن عبد الكريم الجزائري، ش و ك، الجزائر، 1990 .
 - 10- محمد أبو راس الناصري : عجائب الأسفار و لطائف الأخبار، ج 1، تق و تح : محمد غالم، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية، 2005.
 - 11- محمد ابن مريم : البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
 - 12- أحمد أبو العباس المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج 2، تح : إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1388هـ - 1968 م .
 - 13- عبد الكريم الفكون : منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم و الولاية، ط1، تح: أبو القاسم سعد الله، بيروت - لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1408 هـ - 1986 م.
 - 14- عبد الرزاق ابن حمادوش : رحلة ابن حمادوش (لسان المقال في النبأ عن النسب و الحال، تح : أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المكتبة الوطنية - م و ك، 1983.